

سياسة الفصل العنصري البريطانية في السودان ١٩٢٢-١٩٣٠ - دراسة تاريخية

British apartheid policy in Sudan 1922-1930 - A historical study

م.م. أحمد لرحيل عباس

جامعة الموصل - كلية الآداب - قسم التاريخ

ahmed.arhail@uomosul.edu.iq

Assistant Lecturer Ahmed Irhail Abbas

المستخلص:

في العصور التاريخية السودانية المختلفة، ارتبطت اقاليم السودان فيما بينها ارتباطاً وثيقاً، فتشكل على اثرها كياناً متنوعاً عرقياً، ودينياً، وقومياً، جمع بين الاصول العربية وأخرى افريقية متعددة، وربط علاقاتها الاثنية المتكونة عبر الازمنة مع بعضها، بفعل التواصل البشري، غير ان هذا الترابط تأثر كثيراً على اثر امتداد النفوذ الاستعماري البريطاني الى السودان، والذي جعل منه بؤرة متأججة لصراع عنصري- حضاري، بين شقيه شمال السودان العربي الاسلامي من جهة، وبين جنوبه ذات الاغلبية الافريقية الزنجية من جهة اخرى، والتي توضحت بشكل جلي من جراء السياسة الاستعمارية البريطانية، ولاسيما في المدة ما بين عامي ١٩٢٢-١٩٣٠م، اذ غدت هذه السياسة الخبيثة، سبباً مباشراً في زرع العنصرية والفصل العنصري بين ابناء البلد الواحد، وتغذية التفرقة واثارة النعرات العنصرية والاحقاد بين فئات المجتمع السوداني بشقيه الشمالي والجنوبي، عبر مجموعة من الاجراءات والقوانين وتطبيق نظام اللامركزية، بهدف ترسيخ العنصرية فيه، تمهيداً فصل الجنوب عن السودان لاحقاً، وهو

ما تحقق عام ٢٠١١. ويحاول هذا البحث معالجة ذلك عبر تمهيد ومبحثين: المبحث الاول: ملامح السياسة البريطانية

في السودان، المبحث الثاني: الاجراءات البريطانية المكرسة للفصل العنصري بين الشمال والجنوب:

الكلمات المفتاحية: الادارة البريطانية- السودان- العنصرية- التعليم- الزواج

Abstract

In the different Sudanese historical eras, the regions of Sudan were closely linked to each other, forming as a result a diverse ethnic, religious, and national entity, which combined Arab origins with multiple African ones, and linked their ethnic relations formed over time with each other, by human contact, however, this interdependence was greatly affected by the impact of the extension of British colonial influence to Sudan, which made it a raging spark of a racial-civilized conflict, between the two parts of the Arab-Islamic north of Sudan on the one hand, and its south with a black African majority on the other hand, which was clearly demonstrated by the British colonial policy, especially in the period between 1922-1930 AD, as this malicious policy became a direct cause of sowing racism and apartheid between the people of the same country, feeding discrimination and stirring up racist strife and hatred between the groups of Sudanese society in its northern and southern parts, through a set of procedures and laws and the application of the decentralization system, with the aim of consolidating racism in it, in preparation for the subsequent separation of the south from Sudan, which was achieved in 2011. This research attempts to address this through an introduction and two chapters: the first topic: the features of British policy in Sudan, the second topic: the British measures devoted to apartheid between the north and the south.:

Keywords: British administration - Sudan - racism - education – marriage

التمهيد: الموقع الجغرافي والتركيبية السكانية:

يقع السودان في جنوب الصحراء الكبرى على الجهة الشمالية الشرقية من قارة افريقيا، بين خطي عرض ٢٢,٣ شمالاً، والخط الطولي ٣٨,٣ شرقاً، وتبلغ مساحته كاملاً، مليونين ونصف المليون كيلو متر مربع قبل انفصال جنوبه (٩ تموز ٢٠١١، انفصل جنوب السودان واصبح دولة مستقلة، بعد توقيع اتفاقية السلام الشامل في نيفاشا- عاصمة دولة كينيا- في السابع من شباط ٢٠١١). (A group of authors, 2013, p. 313)، وبهذه المساحة عدّ من اكبر اقطارها (Al-Khafaf, 1985)، والمسافة بين اقصى شماله وجنوبه فتكون (٢٠٤٠) كيلو متر، وبين اقصى شرقه وغربه فكانت (١٦٠٠) كيلو متر (Kamel, 1974, p. 32)، اذ شكل ما نسبة ٨٪ من هذه القارة (al-Habib, 1972, pp. 3-4).

اما حدوده قبل انفصال جنوبه، فتحدّه جمهورية مصر من الشمال، والبحر الاحمر والحبشة من الشرق، وجمهوريات ليبيا وتشاد وافريقيا الوسطى من الغرب، وجمهوريات اوغندا والكونغو وكينيا من الجنوب (Islamic Studies Association, 1970, p. 501)، وكان السودان، عند الاحتلال البريطاني يضم ستة اقاليم، هي: اقليم شرق السودان المطل على البحر الاحمر، اقليم ممالك النوبة في الشمال، اقليم شمال ووسط السودان والذي يضم الخرطوم، واطليم كردفان في وسط الى الجنوب، واطليم دارفور غرباً، واطليم جنوب السودان والذي يحده كل من جمهورية أوغندا والكونغو وافريقيا الوسطى (Riyad & Kawthar, 2015, pp. 333-336).

وهناك اراء عديدة حول أصل التسمية، واكثرها شيوعاً، ان لفظة السودان تعني، للدلالة السياسية على الارض الواقعة جنوب مصر (Al-Shami, 2002, p. 11)، اما التركيبة السكانية، فهم مجموعات وسلالات عديدة، تكونت من قسمين، الاولى: المجموعة القوقازية، ويكون تواجدتها في الشمال الى وسط السودان، وتنقسم الى مجموعتين، هم الحاميون ومنهم قبائل البجة والنوبيين، في الشمال الى الوسط وامتداداً الى شرق السودان،

والساميون والمخالطين بهم من الحاميين من سلالة القبائل العربية، وهم رعاة الابل والابقار بصورة عامة، وينتشرون من الشمال الى الوسط (Al-Shami, 2002, p. 13).

والثانية: هي المجموعة الزنجية وهم القاطنين في اقليم ومديريات الجنوب (Riyad & Kawthar, 2015, p. 343)، واعالي النيل وبحر الغزال والاستوائية، وتتكون من مجموعة كبيرة من القبائل، اكبرها الدينكا والشلك والبوير والزاندي، والتي تعد من اقدم قبائل الجنوب، وينقسم المجتمع الجنوبي - من حيث الديانة - الى ثلاثة مجموعات، اذ يشكل المسلمون ١٨٪ والمسيحيون بنحو ١٧٪ والمجموعة الاكبر بنحو ٦٥٪ من مختلف العقائد الوثنية (Al-Madini, 2012, p. 16).

المبحث الاول: ملامح السياسة البريطانية في السودان:

بإعلان الحكم الثنائي (البريطاني - المصري) (رغم ان السودان كان تحت حكم ثنائي مصري- بريطاني وكان العلمان يرفرفان جنباً الى جنب على المباني الحكومية في انحاء السودان باستثناء مدينة سواكن الساحلية فقد كانت الادارة فيها مصرية فقط، الا ان الكلمة النافذة والاخيرة للجانب البريطاني، وكان الصراع محصوراً بين الشعب السوداني والاحتلال البريطاني). (Robertson, 1996, pp. 5-6)، على السودان في ١٩ كانون الثاني عام ١٨٩٩ م (Ibrahim, 2002, p. 7) تبدأ حقبة تاريخية جديدة، وتعد هذه الاتفاقية فريدة من نوعها، اذ صيغت بطريقة تصب في مصلحة بريطانيا، وتمكنها من التمتع، بالسيطرة على كامل السودان، دون اشراك الحكومة المصرية، بشكل فعلي في ادارة شؤون السودان (Bashir, 1987, pp. 38-39).

وتحقق لها ذلك عبر تعيين كتشنر (Kitchener) (هوراشيو هيرت كتشنر: ولد عام ١٨٥٠ م، الوفاة عام ١٩١٧ م، بريطاني الجنسية، سياسي وقائد عسكري، دخل الجيش البريطاني

في عام ١٨٨٣ م، حينما اعاد البريطانيون تنظيم الجيش في مصر بعد احتلالها، عين قائدا للجيش المصري عام ١٨٩٢ م، وقائداً للحملة البريطانية - المصرية لاسترجاع السودان من السيطرة المهدية على السودان. (Ghorbal, (W.D), p. 1443)، مندوباً سامياً بريطانياً، وحاكماً عاماً على السودان، ومنحه صلاحيات واسعة لإدارة الاقاليم السودانية، التي اصبحت احدى مستعمرات بريطانيا في القارة الافريقية (Shaker, 2000, p. 286)، اذ نصت الفقرة العاشرة من ملحق نص اتفاقية الحكم الثنائي على ((..لا يجوز تعيين قناصل، أو وكلاء قناصل، أو مأموري قناصل بالسودان، ولا يصرح لهم بالإقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية..)) (ينظر: ملحق نص اتفاق السودان ١٩ كانون الاول ١٨٩٩، والموقع عن بطرس غالي عن الحكومة المصرية واللورد كرومر عن الحكومة البريطانية) (Hussein, 2013, p. 60).

ولعل هذا يؤكد، انه لم يكن لمصر دور كبير في ادارة السودان، ولم يتعدى دورها من ان يكون اكثر من دور الضيف المشارك، الذي يظهر امام المجتمع الدولي على انه شريك فاعل، الا انه في واقع الحال لا يمارس اي نشاط سيادي يذكر، عبر ثنائية الحكم في السودان، وواقع الحال ان الادارة في السودان، تولى ادارتها مجموعة من الضباط والموظفين البريطانيين، الذين كانوا يدعون بالمفتشين (قامت السلطات البريطانية ومنذ العام ١٩٠٠ م، بتعين كبار الموظفين من رؤساء المصالح والقضاة المدنيين والمديرين من الجنسية الانكليزية حصراً، يعاونهم نفر محدود من المصريين والسوريين، في وظائف ثانوية مثل السكرتارية والترجمة والحسابات من ذوي الخبرة.) (Hussein, 2013, p. 101)، والذين سعوا ومنذ البداية، لعمل كل ما من شأنه زرع بذرة التفرقة العنصرية، عبر السياسة القائمة على إقناع السودانيين بان الحكومة المصرية ترمي الى استعبادهم، وذلك عبر احياء ذكريات، الحملة العسكرية العثمانية - المصرية، وما صاحبها من بعض المظاهر تجاه ابناء الجنوب، أبان سيطرة الجيش الذي ارسله محمد علي باشا على السودان (العام ١٨٢١ م، تمكن والي مصر العثماني محمد علي باشا من ارسال حملة عسكرية عثمانية - مصرية قوامها اربعة الاف جندي من المشاة، بالإضافة الى مفرزة مدفعية بقيادة اسماعيل ابنه

الاكبر، والتي تمكنت من دخول السودان واسقاط اخر سلاطين مملكة الفونج في ١٢ حزيران ١٨٢١ م، ولتبقى السودان مدة ستون عاما تحت السيطرة العثمانية - المصرية وحتى قيام الثورة المهدية عام ١٨٨١ م (Shaker, 2000, p. 286) (Mohieddin, 1995, p. 14)، كما ان المصريين يسعون كذلك للسيطرة على مياه نهر النيل (The Tragedies of the English in Sudan, 2006, pp. 14-15).

ومن اجل ترسيخ هذا المفهوم قامت بريطانيا بخلق طبقة سياسية حاكمة من القبليين الشماليين بشكل خاص، بهدف الاستمالة لصفها، وابعادهم عن الحركة الوطنية الراضية للاحتلال البريطاني، عبر اغرائهم بمنافع شخصية، كان من الممكن الحصول عليها مقابل تأييد سياسة الادارة البريطانية، وكان هدفها الاساسي تكريس حالة التمييز بين الشمال والجنوب، وخلق مظلومية بنفوس الجنوبيين (Bakhit, 1987, p. 13).

وكان لبريطانيا دوافع استعمارية طويلة الأمد، الهدف منها تمكينها من السيطرة على كامل السودان، اذ وضفت بعض الأحداث لخدمة نهجها القائم على عمل كل ما من شأنه لعزل أبناء الجنوب عن إخوانهم من أبناء الجنوب، وكان يدفعها الى ذلك مجموعة من الدوافع، لعل من اهمها:

١ - العمل على تحجيم الدور العربي الإسلامي في الجنوب:

اذ سمحت وبشكل ملحوظ، للإرساليات التبشيرية المسيحية، للعمل في ولايات الجنوب الثلاث بمطلق الحرية، ولخص اللورد كرومر (Lord Cromer) (الاسم: ايفلين بارينج، الولادة والوفاة ١٨٤١ م-١٩١٧ م، المملكة المتحدة، سياسي بريطاني، شغل عدة مناصب سياسية، منها المراقب العام للشؤون المالية في مصر بعد افلاس الخزانة المصرية عام ١٨٧٩ م، ومنصب الحاكم العام لمصر ١٨٨٣ م-١٩٠٧ م) (Lord Cromer, 2004)، الدوافع البريطانية في تشجيع حملات التبشير المسيحي، والعمل على الحد من انتشار الاسلام، معللاً السبب، ان الجنوبيين هم وثنيون كلهم، واتصالهم بالمسلمين يذكرهم بالنخاسين العرب (Arab Organization for Education, Culture and

(Science, 1977, p. 285)، وهو ما اكده هندرسون (Henderson) (ارثر هندرسون، وزير خارجية بريطاني، الولادة والوفاة ١٨٦٣-١٩٣٥ م، سياسي بريطاني، من مدينة جلاسكو الانكليزية، وزعيم لحزب العمال ثلاث مرات، حاصل على جائزة نوبل عام ١٩٣٤ م) (Babti, 2009, p. 317) من ان هذه السياسة تهدف الى معاداة الاسلام، وذكر ذلك بقوله: «... ان انكلترا كدولة مسيحية، لا يمكنها بحكم دينها، ان تشارك في سياسة تشجيع انتشار العروبة والاسلام، بين شعب يزيد على ثلاثة ملايين وثنى، اذ ان ذلك قد يترتب عليه نتائج مدمرة لمصالحها» (Arab Organization for Education, Culture and Science, 1977, p. 273).

٢- تحجيم الدور المصري في جنوب السودان:

وتحقيقاً لذلك اتجهت الادارة البريطانية، ومنذ وقت مبكر، فقد قررت في اذار ١٩١١ م، انشاء قوة من ابناء الجنوب السوداني، تسمى الفرقة الاستوائية، كان هدفها الاساس التخلص من الوجود العربي الاسلامي المتمثل بالجيش المصري المنتشر في الجنوب، والذي تم فعلاً في كانون الاول ١٩١٧ م، على اثر خروج اخر جندي مصري من جنوب السودان (Nur, 2010, p. 64)، ولدعم العزلة بين السودانيين، فقد أقرت السلطات البريطانية استبدال العطلة الاسبوعية في الجنوب من يوم الجمعة الى يوم الاحد بدا من ٣ كانون الثاني ١٩٠٣.

٣- محاربة اللغة العربية وانشاء المدارس الارشالية:

ان سياسة البريطانيين في السودان، كانت قائمة منذ البداية على تمزيق اوصاله، فلم تسمح ادارتها بأنشاء مدارس عربية في الجنوب، وبالمقابل سمحت بدخول الإرساليات التبشيرية، والعمل بحرية مطلقة، في مناطق الجنوب ذات الاغلبية الوثنية، عبر انشاء مدارس خاصة بها، تعنى بنشر المسيحية واللغة الانكليزية، ولعدم وجود مدارس حكومية عربية في الجنوب، نرى التلاميذ المسلمين في الجنوب، كانوا قد اجبروا على تعلم المسيحية، وقراءة الكتاب المقدس، ما اثر على عقيدتهم، ولم يفقهوا شيئاً من مبادئ الاسلام الاساسية (Khalil, 1979, pp. 43-48).

٤- الدوافع الاقتصادية البريطانية:

عام ١٨٨٤ م عقد مؤتمر برلين، للتنسيق بين الدول الكبرى، واضفاء الشرعية للحركة الاستعمارية، والهدف منه تحريك الرأسمالية الاوربية وايجاد مستعمرات، لتعظيم الاموال المتراكمة، التي لم تعد تجدي نفعا من بقائها داخل أوروبا، ولهذا اتجهت الانظار للمنطقة العربية وخاصة قارة افريقيا، اذ كان التنافس الاستعماري على اشده، بسرعة الوصول الى مستعمرات افريقية وخاصة بين بريطانيا وفرنسا، وان بريطانيا قد سبقت فرنسا بالوصول لإفريقيا، باحتلالها مصر منذ العام ١٨٨٢ م، وتحاشت بالبداية الدخول الى السودان تجنبا للاصطدام بالثورة المهدية، حتى تمكنت من تكوين جيش مصري يساندها في احتلال السودان، خاصة بعد ظهور بلجيكا على الساحة الافريقية باحتلالها للكونغو ١٨٩٤ م، مما اشعر البريطانيين بخطورة الموقف وامكانية وصول فرنسا الى اعالي النيل ومناطق المنابع النيل، مما يعرض الزراعة في مصر الى المخاطر في حال قيام فرنسا ببناء سدود، الامر الذي يهدد المصالح البريطانية في زراعة القطن المصري والخطط البريطانية باستصلاح الاراضي في السودان لزراعة القطن ايضا، اذ قام البريطانيين بدراسة امكانية زراعة القطن في السودان، والذي جاء بنتائج اقتصادية ممتازة توفر القطن للمصانع البريطانية (Al-Qadal, 2018, pp. 302-295)

في بدايات القرن العشرين، كانت فلسفة الاستعمار الأوربي، قد تغيرت عن سابق العهد الاستعماري القديم، فكان للخسارة البشرية والاقتصادية اثناء الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٨ م، تأثير مباشر، على الدول الاوربية بشكل عام، وعلى بريطانيا بشكل خاص، وكان لزاماً على الحكومات الاوربية التحرك لتلافي أثار الحرب، فمعظم هذه الدول كان لها مستعمرات في افريقيا بمقاسات اوربية (Ibrahim N. I., 2021, p. 89)، وكانت الفكرة قائمة على تعظيم واردات المستعمرات، عبر انشاء سكك حديد، وتنشيط الحركة التجارية الداخلية والخارجية، وتقديم بعض الخدمات من بناء مستشفيات، ومد شبكة مياه، وانشاء مدارس، وتعليم عن طريق الحملات التبشيرية، وانشأ ادارة محلية موالية مطلقة لها (Al-Qadal, 2018, pp. 253-256).

وكانت بريطانيا قد اتجهت بأنظارها نحو جنوب السودان، الذي عدّ مناطق نائية، ومتخلفة نسبياً، وكانت ادارتها في بداية الاحتلال، تحصل على واردات قليلة من الجنوب، تكون بالغالب عبارة عن ضرائب عينية من المحاصيل الزراعية والقليل من الماشية، حتى ان سكان الجنوب كانوا يشترون بعض الحاجيات من القماش والملابس من التجار (بريطانيين، أوروبيين، مصريين، سودانيين الشمال)، بالبدل العيني، اذا لم تكن تتوفر العملة المالية (النقود) لدى الاهالي الجنوبيين (Badal, 1977, p. 12).

الا انه وبعد الحرب، بدا لها، انه بالإمكان الاستفادة منه اقتصادياً، ما يحقق لها جلب ضرائب جديدة في الخرطوم، لتنفيذ بعض المشاريع المشار لها، دون تكليف الخزنة البريطانية نفقات اضافية، ومن ثم، -وعلى مدى قريب، - تعظيم واردات الحكومة البريطانية، التي عانت من تبعيات الحرب التي أثقلتها (Faga, 1982, pp. 378-381)، وبذلك شكل جنوب السودان اهمية اقتصادية خاصة لبريطانية، ولاسيما وانه يحتوي على حزام واسع من الغابات الاستوائية، وما تحتويه من اشجار الموز الطبيعية، واشجار الخشب الكبيرة المنتجة لمادة الصمغ، التي لم تستغل تجارياً، اذ كان السكان المحليون يستغلونها بعملية الصيد (Bakhit, 1987, p. 11).

٥- محاولات امتصاص زخم الحركة الوطنية المصرية:

بعيد الحرب العالمية الاولى، انطلقت في مصر دعوات من قادة الحركة الوطنية المصرية وفي مقدمتهم سعد زغلول، للمطالبة بإعادة النظر بالعلاقة بين مصر وبريطانيا، ونتيجة لرفض الجانب البريطاني لدعوة الوطنيين المصريين بالتفاوض، انطلقت بالمدن المصرية ثورة عارمة، نتج عنها بما تسمى بحركة التوكيلات (حركة شعبية، العام ١٩١٩ م، انطلقت على شكل عريضة موقعة من ابناء الشعب المصري، تخول كل من، سعد زغلول باشا وعلي شعراوي باشا واحمد لطفي باشا، مع ثلاثة اخرين، للتفاوض مع بريطانيا بالطرق السلمية للحصول مصر على استقلالها).

(Mustafa Amin, W.D, p. 54)، ولخشية الادارة البريطانية من امتداد التوكيلات الى السودان، رغم ان وفد الحركة الوطنية المصرية لم يفاوض على قضية السودان، الا انه كانت تعد معاهدة الحكم الثنائية مجحفة بالنسبة لمصر والسودان (Al-Rafi'l, 1987, p. 322)، وعلى اثر ذلك، شكلت بريطانيا -لامتصاص حالة الغضب- لجنة ملنر، لدراسة حالة الثورة في مصر، والتي اعطت عبر توصياتها، حول اعطاء حرية صورية لمصر (٢٢ تشرين الثاني ١٩١٩م، شكلت بريطانيا لجنة للوقوف على اسباب الثورة في مصر برئاسة، الفريد ملنر، وزير المستعمرات البريطاني، مع مجموعة من الاعضاء الاخرين). (Al-Rafi'l, 1987, pp. 400-402).

المبحث الثاني: الاجراءات البريطانية المكرسة للفصل العنصري بين الشمال والجنوب:

عملت الادارة البريطانية في السودان، منذ البداية، تطبيق سياسة ((فرق تسد))، للسيطرة على اراضي واسعة وشاسعة بحجم السودان من لدن مجموعة قليلة من الضباط البريطانيين، تحت أمرتهم قوات مصرية، وكانت لجنة ملنر قد اصدرت توصيات مهمة، اكدت على فصل السودان وادارته عن مصر، بعد ان تنهت الى خطوة امتداد التيار الوطني المصري الى السودان (Al-Aqili, 2019, pp. 229-231)، ولتحقيق ذلك اصدرت اللجنة ثلاث مذكرات كان لها خطورتها حول وحدة اراضي السودان ولاسيما وانها كانت تتمحور حول جنوب السودان وهذه المذكرات هي:

الاولى: في ١٥ شباط ١٩٢٠م، بعنوان ((اللامركزية في السودان بهدف فصل الزوج عن الاراضي العربية)) وذلك بإقامة خط فاصل بين الزوج والاراضي التي يسكنها العرب السودانيون، بخط يمتد من الشرق الى الغرب (رسمت المذكرة خط يفصل الاراضي السودانية، يسير مع مجموعة انهار البارو والسوبات والنيل الابيض وبحر الجبل). (Ismail, 2020).

الثانية: مذكرة موجهة من اللجنة الى حكومة السودان (البريطانية)، بالاستعداد لقبول اندماج الزوج الجنوبيين، مع حكومات افريقية، تحت النفوذ البريطاني في اوغندا وشرق افريقيا، والعمل على اقامة اتحاد وسط افريقيا تحت الادارة البريطانية

المذكرة الثالثة: جاءت بعد شهر واحد فقط، في يوم ١٤ اذار ١٩٢٠ م، والتي كانت الاكثر صراحة، وجاء فيها، ان السياسة البريطانية تقوم على اساس الحفاظ -بقدر الممكن- على جنوب السودان، وابعاده عن التأثير الاسلامي، عبر استبدال الموظفين من العرب والمسلمين، بالزوج من السكان المحليين، وتقديم مشورة لهم، وفيما لو اقتضت الحاجة الى ارسال قوة مصرية للجنوب، فيختارون من الجنود الاقباط (Hussein, 2013, p. 60)، وتشجع المذكرة على زيادة الحملات التبشيرية، وتقترح ان تكون العطلة في جنوب السودان يوم الاحد، بدلا عن يوم الجمعة (Ismail, 2020).

ولتطبيق هذه السياسة، استندت الى لعدة عناصر موروثية في الشخصية السودانية وقوانين واجراءات عديدة، لعل اهمها:

١ - الجلالة والغربة:

الجلالة: مفردة سودانية محلية تستخدم في جنوب السودان، للإشارة الى اشخاص (سودانيين وغير سودانيين)، يأتون بمواد وسلع تجارية من خارج اقليم الجنوب، لغرض بيعها ومقايضتها لدى السكان الجنوبيين، وسبب تسميتهم بالجلالة لأمرين، الاول: انهم يلبسون الجلابية السودانية، لتمييزهم عن سكان الجنوب الذين لا يرتدون الجلابيات الشمالية، بحكم تنوع الثقافة، والثاني: هو لجلهم السلع الى اعماق المنطقة الاستوائية الجنوبية (Abu Ghassan & Essam El-Din Mirghani Taha, 2014, pp. 42-43)، ويعود نشاطهم التجاري الى العام ١٥٠٠ م، وكما

تم ذكره أنفأ، فإن السلع تقايض بموارد المنطقة ومن ضمنها، عملية تبديل العبيد السود بسلع، ولهذا- بشكل أو باخر- ارتبط اسم الجلالة بتجارة الرقيق في افريقيا، في ذاكرة السوداني الجنوبي (Bakhit, 1987, p. 133).

اما الغرابة، بتشديد حرف الغين، وهم اشخاص يزاولون نفس النشاط التجاري للجلالة، ولكن حركتهم التجارية تكون من شرق السودان الساحلية الى غربها، في ولايات دارفور، واشتهرت قبيلة الزغاوة بهذا الامر (Al-Gharaba, 1998, pp. 75-120).

ويتسأل الباحث، لماذا ركز البريطانيون على مفردة الجلالة، والترويج لها، ولم يتطرقوا للغرابة؟ والاجابة: أن السياسة البريطانية قد زرعت في نفوس وذاكرة الجنوبيين، فكرة ربط تجارة الرقيق في افريقيا وجنوب السودان بشكل خاص، بالسودانيين العرب، وعززت هذه الفكرة عبر قطع التواصل بين الشمال والجنوب، وتكريس السيطرة الاستعمارية، وهذا كان من اهم الاساليب البريطانية في السودان للفصل العنصري، وترسيخ فكرة ان البريطانيين قد خلصوهم من الرق والعبودية في اذهان الجنوبيين.

٢- قانون ١٩٢٢:

اصدرت الادارة البريطانية، قانون يسمى ((بقانون الرخص)) في ١٥ تشرين الاول ١٩٢٢م، اسباب القانون بظاهره، لتنظيم الحركة التجارية في السودان، ويتكون من ١٥ فقرة، لتنظيم الادارة التجارية، لكن الملفت للنظر هي الفقرات (٣ و ٤ و ٥ و ١٤) منه، والتي احتوت على صلاحيات بمدلولات سياسية، كان من شأنها عزل، ومن ثم فصل الجنوب عن الشمال، وقطع الطريق عن اية وسيلة لتحقيق الاندماج الوطني بين ابناء البلد الواحد، الذي يتميز باحتوائه على تعدد ديني وعرقي متنوع، وقد ركزت على الامور التالية:

- الفقرة الثالثة من قانون الرخص: والتي تنص على منع غير السودانيين من مزاولة الانشطة التجارية الا بعد الحصول على رخصة محكومة بمدة معينة، وضمن نطاق مكاني مخصص، من حاكم المحلية المختصة (Sudanese Ministry of Justice, 2015, p. 90).

- الفقرة الرابعة: وتنص على، السماح للسلطة او حاكم الولاية او المديرية، رفض تجديد أي رخصة للمواطنين السودانيين صدرت سابقا (Sudanese Ministry of Justice, 2015, pp. 90-91).

- الفقرة الخامسة: حرمان السودانيين من مزاولة المهنة والتجارة في حالات معينة، اذ يجوز للمكلف بالولاية او المديرية، حرمان المواطن السوداني من العمل في اماكن معينة من الاراضي السودانية في الجنوب، اذ كانت الفقرة اعلاه، في (١- ب)، وتنص "اذ اقتنعت السلطة، التي تصدر الامر بانه احدث تأثيرا ضارا بالأخلاق او الصحة او مصالح المواطنين بتلك المنطقة" (Sudanese Ministry of Justice, 2015, p. 92)

يرى الباحث، ان الفقرة الاخيرة بذاتها، تحمل دوافع سياسية، اذ منحت السلطة التفويض بأبعاد اي شخص من اي مكان في الاراضي السودانية، بحجة الاضرار، -وعلى الاقل - بالمصالح العامة للمواطنين لتلك البقعة، وبتطبيق هذا القانون سيكون هنالك مناطق مقفلة، على ابناء البلد الواحد، وسيظهر تأثير هذا القانون على ولايات جنوب السودان بشكل واضح.

وكانت هنالك مخاوف لدى الادارة البريطانية من تغلغل التيار الاسلامي، والنفوذ الديني المتزايد لكل من عبد الرحمن المهدي والسيد علي المرغيني، واتباعهم، الى قبائل الجنوب، عن طريق التجارة او الوظائف (Al-Taweel, 2020)، اذ هنالك حادثة طريفة حدثت عام ١٩٢٤ م، تؤكد سياسة بريطانيا في منع تغلغل الاسلام لولايات الجنوب، مفادها ان هنالك موظفا من اهالي الشمال، قد نقل الى الولاية الاستوائية، ولم يكن راغباً في ذلك، ولم تفلح كل

محاولاته بالرجوع الى منطقة سكناه، فما كان منه باللجوء الى حيلة بسيطة، بالذهاب الى السوق، ورفع الاذان بصوت عالي بين الناس، فما ان سمع الحاكم الانكليزي بالأمر، حتى نقله على الفور الى شمال السودان (The Tragedies of the English in Sudan, 2006, p. 22).

واكدت الفقرة الرابعة عشر: على الابعاد ومصادرة البضائع، اذ أقر القانون صلاحية للقائمين على السلطة مصادرة كل او جزء من البضائع، في حالة مخالفة التاجر، او الممتن السوداني قانون الرخص، من حيث عدم الحصول على الرخصة او انتهاء مدة مزاولة الرخصة، وابعاده ومنع دخوله مستقبلا للمنطقة المعنية (Sudanese Ministry of Justice, 2015, p. 94).

ان قانون الرخص لعام ١٩٢٢م، بات يعرف بالأدبيات التاريخية ((بقانون المناطق المقفلة))، اذا اصبحت ولايات الجنوب، مقفلة وغير مسموح لسكان الشمال بالدخول اليها، الا بموافقات خاصة يمنحها مسؤول الولاية او ناظر المديرية وغالبيتهم من البريطانيين.

ولتحقيق ذلك عمدت بريطانيا على تطبيق نظام الادارة الاهلية في جنوب السودان: وهو تطبيق نظام مشايخ القبائل، للعادات والتقليد المحلية، بدلا عن قوانين المدنية في الادارة المركزية العامة للسودان، اذ كلفت بريطانيا السير ديفيز (موظف انكليزي، وصل الى منصب سكرتير مديرية عام ١٩٤٣م، وهو احد عناصر مكتب المخابرات البريطانية بالإدارة الجنوبية للسودان)، (Bakhit, 1987, p. 85) للذهاب الى نيجيريا ما بين ١٩٢٣-١٩٢٤م، لدراسة نظام الادارة الاهلية هنالك، ونقلها الى ولايات الجنوب، وقدم تقريراً بالأمر المكلف به، واقر ونفذت منذ العام ١٩٢٥م، وبهذا فصلت ولايات الجنوب عن الادارة المركزية (Habib, 1999, pp. 190-192).

اوغل البريطانيون بسياسة زرع وتكريس المظلومية بنفوس ابناء الجنوب، عبر التأكيد على الاختلاف في اجور العمال بين الشمال والجنوب، فكان أجر العامل الجنوبي ١٥ مليما فقط، وهي لا تكف الا

لحفنة من الذرة، لسد رمق اسرته (Sudanese Ministry of Justice, 2015, p. 178)، وأما العاملين بالزراعة وجمع العسل، فكانت قيمة الضرائب خمسة اضعاف قيمتها الحقيقية، لمن اراد تصدير منتجاته الى الشمال، ولكي يبقى الاقتصاد الجنوبي هزياً وتحت سيطرة البريطانيين (Sudanese Ministry of Justice, 2015, p. 184).

كما منع البريطانيون كل اشكال الحضارة والتقدم في الجنوب، اذ فرض المفتشون الانكليز على ابناء الجنوب، عدم ارتداء الملابس، وابقائهم عراة، والزامهم بلبس طاقية، وبدون عمامة منعاً للتشبه بالعمامة في الشمال، وكل ما كان يصرف للفرد الواحد، وهو ربع متر من القماش (حتى عام ١٩٤٦ م، كانت حصة مدينة واو الاستوائية، هي (٢٠) بالة فقط من القماش، لكل السكان). (Habib, 1999, pp. 190-197)، لا يكفي حتى لستر العورة (Sudanese Ministry of Justice, 2015, p. 174).

وفي عام ١٩٢٤ م، اصدرت الادارة البريطانية الجنوبية، قراراً بإلغاء المحاكم الشرعية في ولايات الجنوب، وحل محلها المفتش الانكليزي، بإدارة امور الاحوال الشخصية، والذي اصدر توجيهها بمنع الزواج بين ابناء الشمال والجنوب، بل الادهي والأمر، اقدامه على منع الشمالي الذي كان قد تزوج من جنوبية من اخذ اطفاله الى ولايات الشمال، خوفاً من اختلاط الدم العربي المسلم بالزنجي الوثني مستقبلاً (Habib, 1999, p. 196)، اذ صدر في ١٥ ايار ١٩٢٦، قانون تنظيم الزواج، نصت الفقرة-ب- من الفصل الرابع "يجوز للزوج تعدد الزوجات وللزوجة الحق بالطلاق، في حال اعتنق الزوج الدين الاسلامي" (Sudanese Ministry of Justice, 2015, p. 369).

وكما اشرنا سابقاً، سمحت الادارة البريطانية، للإرساليات التبشيرية (كاثوليكية - بروتستانتية)، للعمل في المديرية الجنوبية منذ العام ١٩٠٣ م، ولم تسمح لوزارة المعارف السودانية بفتح مدارس في الجنوب،

على العكس من الشمال، التي كانت فيها مدارس حكومية، فكان التعليم في الجنوب، تعليم كنسي، للأسباب التي ذكرناها سابقاً، وفي مقدمتها الخوف من انتقال الثقافة العربية الاسلامية للجنوب (Lafi, 2004, pp. 215-217).

لكن الامر اصبح ملحاً بعد عام ١٩٢٦ م، بضرورة اشراف الادارة الجنوبية على فتح مدارس اولية، لتهيئة طبقة من الموظفين من اهالي الجنوب (Al-Sayed, 1990, pp. 25-48)، لهذا عقدت الجمعيات التبشيرية مؤتمراً في المديرية الاستوائية في عام ١٩٢٨ م، قررت فيه استخدام اللغة الانكليزية في ولايات الجنوب مع سبعة لغات محلية جنوبية كلغة تعليم في مراكز التعليم في محليات الجنوب، والتي تشرف عليها هذه الجمعيات التبشيرية (Al-Taweel, 2020)، وتنفيذاً لما تم الاتفاق عليه في مؤتمر الرجاف اللغوي (عقد المؤتمر تحت رعاية الحكومة البريطانية وبأشراف المعهد الدولي للغات والثقافات الافريقية، في نيسان العام ١٩٢٨ م، حضره عدد من علماء اللغة وممثلي الارساليات، انتهى المؤتمر بالاتفاق على اختيار ستة لغات محلية هي لغات، النوير والشلك والزاندي والباريا والاتوكا والدينكا، بالإضافة الى اللغة الانكليزية، على ان تكون الكتابة بمختلف هذه اللغات بالحروف اللاتينية وايجاد حل لمشكلة صوت الحروف الإنكليزية التي تقابلها باللهجات المحلية). (Sudanese Al-Tahrir newspaper, 2017)، ومن الامعان والتصلب في تنفيذ الفصل العنصري، ان الانكليز اصدروا كراساً لتعليم اللغة العربية باللغة الانكليزية، ليدرس للتلاميذ في الجنوب (The Tragedies of the English in Sudan, 2006, p. 11)، ومن الجدير بالذكر، ان اول مدرسة ثانوية انشأ في جنوب السودان، كانت في محلية رمبيك، في العام ١٩٤٨ (Al-Taweel, 2020).

كما صدر منشور دوري للإدارة البريطانية في الجنوب، في ٢٥ كانون الاول ١٩٣٠ م، اكد على ابعاد الموظفين الشماليين عن الادارة في الجنوب، ومما جاء فيها «على الادارة الجنوبية، العمل على انشاء وقيام وحدات عنصرية بروابط قبلية»، بأنشاء مجموعة من الموظفين من ابناء الجنوب، ليحلوا محل ما تبقى من الموظفين الشماليين، ووجوب استخدام اللغة الانكليزية، بدلاً من اللغات المحلية في دواوين الادارة الجنوبية (Bakhit, 1987, p. 88).

موقف السودانيين من السياسة البريطانية

لم يكن الشعب السوداني على قدر كافي من الوعي السياسي، في بدايات الاحتلال البريطاني، وعلى قدر من المعرفة بحجم المؤامرة التي تحاك ضدهم حتى العام ١٩٣٠ م.

لقد وجهت بريطانيا، المتحالفين معها من الطبقة السياسية المصطنعة، بصب مطالبهم بأنهاء الحكم الثنائي والتخلص من السيطرة المصرية، وان بريطانيا كانت تريد الخلاص للسودان وتأسيس دولة مستقلة، لقد تنبه الوطنيون السودانيون لسياسة بريطانيا، فكان لظهور جمعية اللواء الابيض عام ١٩٢٤ م، والتي تزعمها علي عبد اللطيف وهو من اب نوبي وام زنجية من قبيلة الدينكا، لخطورة الاجراءات البريطانية التي ترمي الى اخراج المصريين من السودان، وفصل جنوب السودان ودمجه مع نيجيريا باتحاد تحت الحماية البريطانية، ولهذا ارسلت جمعية اللواء الابيض احد اعضائها برسالة الى سعد زغلول، يؤكد فيها على الوحدة مع مصر، الا ان السلطات البريطانية القت القبض عليه على الحدود مع مصر واعادته، لقد كان السبب في عدم ظهور رؤية واضحة لدى السكان تجاه الاجراءات البريطانية هو سياسة الفصل نفسها، التي قطعت التواصل بين ابناء الجنوب والشمال عبر قوانين منع الانتقال، والتي كانت احد اسباب ثورة ١٩٢٤ م. (Taha, 2012, pp. 13-9)

- خاتمة واستنتاجات:

توصلت الدراسة الى مجموعة من النتائج كان من ابرزها:

- ١- اعتمدت السياسة البريطانية على مبدأ، الفصل بين السودانيين، لكي يسهل السيطرة على الاراضي السودانية.
- ٢- كانت الادارات البريطانية المتعاقبة على السودان، هدفها الاساس اقامة حاجز بشري للفصل بين العرب المسلمين في شمال السودان ومصر من جهة، وبين المستعمرات البريطانية في افريقيا.

- ٣- قطعت اوصال السودان بقانون الرخص لعام ١٩٢٢م، الذي حرم السودانيين من التنقل الحر داخل البلد.
- ٤- قانون الرخص (المناطق المقفلة)، ولد لدى الجنوبيين مظلومية في نفوسهم تجاه ابناء بلدهم في الشمال.
- ٥- ان حالة التخلف والتردي الاقتصادي والثقافي في الجنوب، ولد عنصرية في نفوسهم، سيكون سببا في حالة من الكراهية بين السودانيين، وتؤدي الى قيام حروب اهلية، كانت نتيجة ما زرعه البريطانيون في ابناء الجنوب.

References

- A group of authors. (2013). *The Arabs and the Horn of Africa, The Dialectic of Neighborhood and Belonging*. Beirut: The Arab Center for Research and Policy Studies.
- Abu Ghassan, & Essam El-Din Mirghani Taha. (2014). *A civil story*. Cairo: Al-Hadara Publishing.
- Al-Aqili, A. R. (2019). The Egyptian Revolution of 1919 and its Impact on the National Movement in Sudan until 1924. *Al-Qadisiyah Journal of Arts and Educational Sciences*.
- Al-Gharaba, A. A. (1998). *the groups that immigrated from West Africa and settled in Sudan and the Nile Valley and their role in the formation of the Sudanese identity*. Dar Al-Hawi for printing, distribution and publishing.
- al-Habib, A. M. (1972). *Sudan, Natural and Economic Studies*. Cairo: Anglo-Egyptian Press.
- Al-Khafaf, A. A. (1985). *Geography of the Arab World*. Iraq: Basra University Press.

- Al-Madini, T. (2012). *History of Political Conflicts in Sudan and Somalia*. Syria: Public Authority for Printing.
- Al-Qadal, M. S. (2018). *Modern History of Sudan 1820-1955* (Vol. 3). University of Khartoum House for Printing and Publishing.
- Al-Rafi'l, A. a.-R. (1987). *The 1919 Revolution: Egypt's National History from 1919 to 1921*. Cairo: Dar al-Ma'arif.
- Al-Sayed, N. (1990). *History of Politics and Education in Sudan* (Vol. 2). University of Khartoum Publishing House.
- Al-Shami, S. S. (2002). Alexandria: Manshaat al-Maarif.
- Al-Taweel, A. (2020). (South Sudan... Opportunities for Peace and Challenges of Division). (special issue, April).
- Arab Organization for Education, Culture and Science. (1977). *Arab-African Relations*. Cairo: League of Arab States.
- Babti, A. F. (2009). *Encyclopedia of Media (Arabs, Muslims and Internationals)* (Part Four ed.). International Book House.
- Badal, R. K. (1977). *British administration in southern 1900-1956*. university of London.
- Bakhit, J. M. (1987). *The British Administration and the National Movement in Sudan 1919/1939* (Vol. 2). Khartoum.
- Bashir, M. O. (1987). *History of the National Movement in Sudan 1900-1969*. (t. b. others, Trans.) Khartoum: Arabic for Authoring and Translation.

- Faga, J. D. (1982). *History of West Africa*. (D.-S. Y. Nasr, Trans.) Cairo _ C.M: Dar Al-Maaref.
- Ghorbal, M. S. ((W.D)). *The Easy Arabic Encyclopedia*. National House for Printing and Publishing, Misr Press.
- Habib, A. A. (1999). *Federalism and Separatism in Africa*. Cairo: Madbouly Library.
- Hussein, A. (2013). *Sudan from Ancient History to the Journey of the Egyptian Mission* (Part Two ed.). London: Hindawi Foundation.
- Ibrahim, A. A. (2002). Britain's Role in the Problem of Southern Sudan. *Symposium on the Future of Sudan in Light of Recent Changes*. Cairo University: Institute of African Research and Studies.
- Ibrahim, N. I. (2021). The Economic and Social Effects of the First World War. *Diyala Magazine*(Issue 89).
- Islamic Studies Association. (1970). *Islamic Calendar*. Cairo.
- Ismail, M. O. (2020, August 27). article entitled ((Sudan from Tyranny to Partition)). *Center for Arab Unity Studies*.
- Kamel, A. A. (1974). *Studies in the Human Geography of Sudan*. Cairo: Arab Organization for Education, Culture and Science.
- Khalil, E. E.-D. (1979). *Hatreds and Greeds of Missionary in Muslim Africa* (Vol. 2). Cairo: Al-Mukhtar Al-Islami.
- Lafi, M. F. (2004). *Originating Terminology and Determining Sharia Controls with an Applied Example: Sudan as a Model*. United Arab Emirates: Dar Kalima for Publishing and Distribution.

- Lord Cromer, R. O. (2004). *The Imperialist and the Military Ruler*. (R. Abbas, Trans.) Oxford University.
- Mohieddin, S. (1995). *Pauses in the History of Sudan* (Vol. 3). Beirut: Al-Hilal House and Library.
- Mustafa Amin. (W.D). *Memoirs of Fakhri Abdel Nour– The 1919 Revolution and the Role of Saad Zaghloul and the Wafd in the National Movement*. (D. L. Rizk, Ed.) Cairo: Dar Al Shorouk.
- Nur, H. (2010). The Southern Sudan Issue – Origins and Development. *Al-Wa'yyah Magazine*(Issue 286).
- Riyad, M., & Kawthar. (2015). *Africa: A Study of the Continents of the Continent* (Vol. 2nd Edition). Hindawi Foundation.
- Robertson, S. J. (1996). *Sudan from Direct British Rule to the Dawn of Independence*. (T. A. Al-Khanji, Trans.) Beirut: Dar Al-Jabal.
- Shaker, M. (2000). *Islamic History – Contemporary History – Nile Valley – Egypt and Sudan* (Vol. Edition 2). Islamic Office.
- Sudanese Al-Tahrir newspaper. (2017). The Journey of the Arabic Language in Southern Sudan. (April 3).
- Sudanese Ministry of Justice. (2015). *Sudan Laws 1903–1929* (Volume One ed., Vol. Ninth Edition). Khartoum.
- Taha, F. A. (2012). *The Southern Sudan Question in a Historical Context 1899–1986*. Abdul Karim Marghini Cultural Center, Omdurman.

The Tragedies of the English in Sudan. (2006). *a document presented by the Sudanese delegation to Egypt in 1946* (Vol. 2). The Intellectual Business Authority in cooperation with the Center for African Research and Studies.